والريا والنفاق وكل ذلك مذموم بعضه محظور وبعضه مكروه وفي العزلة الخلوص
منها فان من لقي الخلق ولم يخالقهم باخلاقهم مقتوه واستثقلوه واغتابوه وتشمروا
لايذائه فيذهب دينهم فيه ويذهب دينه ودنياه في الانتقام منهم واما مسارقة
الطبع لما يشاهده من اخلاق الناس واعمالهم فهو داء دفين قل ما ينتبه له العقلاء
فضلا عن الغافلين فلا يجالس الانسان فاسقا مدة مع كونه منكرا عليه في باطنه
الا ولو قاس نفسه الى ما قبل مجالسته ادرك فيها تفرقة في النفرة عن الفساد واستثقاله
اذ يصير الفساد بكثرة المشاهدة هينا على الطبع فيسقط وقعه واستعظامه عنده
وانما الوازع عنه شدة وقعه في القلب فاذا صار مستصغرا بطول المشاهدة
اوشك ان تنحل القوة الوازعة ويذعن الطبع الى الميل اليه او لما دونه ومهما
طالت مشاهدته للكبائر من غيره استحقر الصغائر من نفسه ولذلك يزدري
الناظر الى الاغنياء نعمة الله عليه فتؤثر مجالستهم في ان يستصغر ما عنده ويؤثر
مجالسة الفقراء في استعظام ما اتيح له من النعم الجليلة فكذلك النظر الى المطيعين و
العصاة هذا تاثيره في الطبع فمن يقصر نظره على ملاحظة احوال الصحابة والتابعين
في العبادة والتفرد عن الدنيا فلا يزال ينظر الى نفسه بعين الاستصغار والى عبادته بعين
الاستحقار وما دام يرى مقصرا فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة في الاستكمال
واستتماما للاقتداء ومن نظر الى الاحوال الغالبة على اهل الزمان واعراضهم عن الله
تعالى واقبالهم على الدنيا واعتيادهم المعاصي استعظم امر نفسه بادنى رغبة في الخير
يصادفها في قلبه وذلك هو الهلاك ويكفي في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلا
عن مشاهدته فبهذه الدقيقة يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم عند ذكر الصالحين
تنزل الرحمة فانما الرحمة دخول الجنة ولقاء الله وليس تنزل عند الذكر عين ذلك ولكن
سببه وهو انبعاث الرغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم والاستنكاف مما
هو ملابس له من القصور والتقصير ومبدأ الرحمة هو فعل الخير ومبدأ فعل الخير الرغبة
ومبدأ الرغبة ذكر احوال الصالحين فهذا معنى نزول الرحمة والمفهوم من فحوى هذا الكلام
عند الفطن كالمفهوم من نطقه وهو انه عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة لان كثرة ذكرهم
تهون على الطبع امر المعاصي واللعنة هي البعد من الله تعالى ومبدأ البعد من الله تعالى
هو المعاصي والاعراض عن الله تعالى بالاقبال على الحظوظ العاجلة والشهوات الحاضرة
لا على الوجه المشروع ومبدأ المعاصي سقوط ثقلها وتفاحشها عن القلب ومبدأ
سقوط ذلك وقوع الانس بها بكثرة السماع واذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين

فاظنك

فاظنك بمشاهدتهم بل قد صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال مثل الجليس
مثل الكير ان لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه فكما ان الريح تعبق بالثوب ولا يشعر بها
فكذلك يسهل الفساد على القلب ولا يشعر به وقال صلى الله عليه وسلم مثل الجليس
الصالح مثل صاحب المسك ان لا يهب لك منه تجد ريحه ولهذا اقول من عرف
من عالم زلة حرم عليه حكايتها لعلتين احداهما انه غيبة والثانية وهي اعظمها
ان حكايتها تهون على المستمعين امر تلك الزلة ويسقط من قلوبهم استعظامها والاقدام
عليها فيكون ذلك سببا لتهوين المعصية فانه مهما وقع فيها فاستنكر ذلك وقع
الاستنكار وقال كيف يستبعد هذا منا وكلنا مضطرون الى مثله حتى العلماء
والعباد ولو اعتقد ان مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ولا يتعاطاه موفق معتبر لشق
عليه الاقدام فكم من شخص يتكالب على الدنيا ويحرص على جمعها ويتهالك على حب
الرياسة وتزيينها ويهون على نفسه قبحها بان الصحابة رضي الله عنهم لم ينزهوا
عن حب الرياسة وربما يستشهد عليه بقتال علي ومعاوية رضي الله عنهما و
يخمن في نفسه ان ذلك لم يكن لطلب الحق بل لطلب الرياسة فهذا الاعتقاد
يهون عليه ارتكاب المعاصي في ابتغاء امر الرياسة ولوازمها من المعاصي
والطبع اللئيم يميل الى اتباع الهفوات والاعراض عن الحسنات بل الى تقدير
الهفوة فيما لا هفوة فيه بالتنزيل على مقتضى الشهوة ليتعلل به وهو من دقائق
مكايد الشيطان ولذلك وصف الله المراغبين للشيطان فيها بقوله تعالى الذين
يستمعون القول فيتبعون احسنه وضرب صلى الله عليه وسلم لذلك مثلا
وقال مثل الذي يجلس مجلسا يسمع الحكمة ثم لا يحمل الا شر ما يسمع كمثل
رجل اتى راعيا فقال له يا راعي اجزر لي شاة من غنمك فقال اذهب فخذ خير شاة
منها فذهب فاخذ باذن كلب الغنم وكل من ينقل هفوات الائمة فهذا مثاله
ايضا ومما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته
ان اكثر الناس اذا راوا مسلما افطر في نهار رمضان استبعدوه استبعادا يكاد
يفضي الى اعتقادهم كفره وقد يشاهدون من يخرج الصلوة عن اوقاتها ولا تنفر
عنه طباعهم كنفرتهم عن تاخير الصوم مع ان صلوة واحدة يقتضي تركها الكفر
عند قوم وحز الرقبة عند قوم وترك صوم رمضان كله لا يقتضيه ولا سبب له
الا ان الصلوة تتكرر والتساهل فيها مما يكثر فيسقط وقعها بالمشاهدة عن
القلب وكذلك لو لبس الفقيه ثوبا من حرير او خاتما من ذهب او شرب من
اناء فضة استبعدته النفوس واشتد انكارها وقد يشاهد في مجلس طويل

Copyright © King Saud University